

## مقالات

# ترتيب الطفل داخل أسرته وتأثيره على النمو النفسي والاجتماعي للطفل

د. محمد عباس نور الدين

من بين العوامل التي تؤثر في شخصية الطفل بصفة عامة ترتيبه بالنسبة لإخوته، كأن يكون هو الطفل الأول أو الثاني أو الطفل الأخير، أو أن يكون هو الطفل الذكر بين عدد من الأخوات، أو أن تكون الطفلة هي الأنتى الوحيدة بين عدد من الأخوة. كما قد تتأثر العلاقات بين الطفل وأخوته وبينه وبين والديه بالفارق الزمني بين عمر الطفل وأعمار إخوته وأخواته، وبما قد يحدث أحياناً من وفيات بين الإخوة كأن يأتي الطفل بعد عدة وفيات أو تأتي بعده عدة وفيات.

كل هذه الحالات يترتب عنها علاقات معينة وذات طابع خاص بين جميع الأفراد المتواجدين في المجال الحياتي للطفل سواء تعلق الأمر بإخوته أو أخواته أو بوالديه. وبدون أن يشعر الوالدان فإنهما يتأثران في تعاملهما مع الطفل بالمركز الذي يحتله الطفل داخل الأسرة، بل أن هذا التأثير قد يكون واضحاً وحاسماً في بعض الحالات الخاصة كحالة الطفل الذي يأتي بعد وفاة عدد من إخوته، أو حالة الطفل الوحيد.

ولا بد من الإشارة إلى أن التأثير الذي يتركه مركز الطفل أو ترتيبه في شخصيته ليس هو العامل الوحيد في تكوين شخصيته إذ تتداخل في تكوين هذه الشخصية عوامل

متعددة: بيولوجية، نفسية، اجتماعية... ولعل أبرز هذه العوامل نمط التنشئة الاجتماعية التي يخضع لها الطفل والتي تلعب دوراً حاسماً في تحديد شخصيته وفهم سلوكه وضبط وتوجيه دوافعه<sup>(1)</sup>.

### كيف نعامل الطفل الأول:

إن حالة الطفل الأول هي الأكثر شيوعاً على اعتبار أن جميع الأسر التي لها أبناء تعرف هذه الحالة. فالطفل الأول يأتي إلى هذا العالم وهو مرغوب فيه من طرف والديه. وعلى الرغم من أن كثيراً من الأسر في مجتمعاتنا تفضل أن يكون الطفل البكر ذكراً إلا أن الطفل الأول - ذكراً كان أم أنثى - يظل يحتل مكانة خاصة بالنسبة لمن يأتي بعده من أطفال، ويحظى باهتمام خاص من طرف والديه، وعادة ما يوجه الأبوان اهتماماً كبيراً للطفل الأول، ويحيطانه بالحب والرعاية، ويتناهما القلق إذا ما تعرض لأي مكروه. وقد تبلغ هذه الرعاية درجة مفرطة تحول دون احتكاك الطفل بالعالم الخارجي احتكاكاً يساعده على تكوين خبرات وتجارب خاصة به مختلفة عن خبرات وتجارب الكبار. فالأبوان يستجيبان لجميع مطالب الطفل وينفذان جميع رغباته مما يجعله يعتبر هذه المطالب والرغبات حقوقاً لا بد من تحقيقها، في حين لا يكون صورة حقيقية وواضحة عن واجباته سواء إزاء نفسه أو إزاء إخوته أو إزاء أسرته وباقي الأفراد المحيطين به.

والجانب السلبي في مبالغة الوالدين في رعاية الطفل الأول أنهما لا يتيحان للطفل فرصة الاستعداد للاستقلال عنهما مما يجعل الطفل ضعيف الثقة بنفسه واثكالياً وغير قادر على مواجهة الصعاب وعلى تكوين علاقات سليمة مع الآخرين. ولابد من التأكيد بأن اتصاف الطفل الأول بهذه الصفات ليس أمراً حتمياً، إلا أن مبالغة الوالدين في العناية بالطفل الأول والاستجابة لجميع مطالبه... من شأنه أن يعرض الطفل لاحتمال اتصاف سلوكه بالاثكالية والشعور بالعجز وضعف الثقة بالنفس... إلى غير ذلك من الصفات السلبية<sup>(2)</sup>.

### الموقف من الطفل الثاني:

عندما يأتي الطفل الثاني يكون الأبوان قد اكتسبا الكثير من الخبرات نتيجة السنوات التي قضياها في تنشئة الطفل الأول. لذا تتسم تصرفاتهما إزاء الطفل الثاني بثقة أكثر.

1- راجع LOBROT (Michel) Priorité à l'éducation. Ed. Payot, Paris, 1973. p:5-25

2- القوصي (عبد العزيز)، أسس الصحة النفسية، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة 1962، ص: 201-224.

ويقلق أقل مما كان عليه الأمر بالنسبة للطفل الأول.

إلا أن ذلك يجب أن لا يصل إلى درجة إهمال الطفل الثاني. وفي هذه الحالة إن الموقف المطلوب من الآباء الالتزام به هو الاعتدال في التعامل سواء مع الطفل الأول أو الثاني، بحيث يتاح للطفل أن يعرف حقوقه وواجباته وأن يكتسب بنفسه الخبرات والتجارب نتيجة تعامله مع الأشياء ومع الآخرين لا سيما الأطفال من أمثاله، وهذا سيساعده على تكوين مقاييس ومعايير تختلف عن مقاييس ومعايير الكبار، وبالتالي يصبح أكثر قدرة على نفسه والاستقلال تدريجياً عن الكبار.

إلا أن الذي يحدث في الغالب هو أن مجيء الطفل الثاني يجعل اهتمام الوالدين، الذي كان منصباً على الطفل الأول، يتحول إلى الطفل الثاني مما يترك أثراً واضحاً على سلوك الطفل الأول وشخصيته. وقد يلاحظ الوالدان في مثل هذه الحالة أن الطفل الأول تهتز ثقته بنفسه وبالذين يوجدون في محيطه لا سيما والديه، ويصبح سلوكه أميل إلى الانانية والعناد والتحدي، وتنشأ الغيرة بينه وبين الآخرين، وما يترتب عليها من مشاكل قد تؤثر في شخصية الطفل مدى الحياة. وما ينصح به الآباء في مثل هذه المواقف هو التعامل مع الطفل الأول والثاني تعاملًا يتسم بالعدل والإنصاف، وتشجيع الطفلين على التعاون والتضامن، وأن لا يتدخل في حياتهما بطريقة تشعر أحدهما بالغبين أو بأنه غير مقبول أو غير محبوب من طرف والديه... ومن الطبيعي أن يكون هناك اختلاف بين الطفلين من حيث القدرات العقلية أو من حيث الشكل والخبرات... وعلى الآباء أن يكونوا حذرين وواعين بحيث لا تدفعهما هذه الاختلافات إلى التمييز بين الأبناء والمقارنة بينهما بحضورهما حتى ولو كان أحد الطفلين ذكراً أو أنثى، أو ذكياً والآخر أقل ذكاء... ويجب أن يدركوا بأنه إذا كان الطفل الثاني أصعب عوداً وأكثر ثقة بنفسه فما ذلك إلا لأنه أتاحت له فرص أكثر للاعتماد على نفسه نتيجة قلة تدخل الوالدين في سلوكه وفي كيفية اكتسابه لخبراته وتجاربه من خلال تعامله مع الأشياء المحيطة به ومع الأطفال الآخرين لا سيما مع أخيه الأكبر منه سناً وبالتالي الأكثر خبرة وتجربة<sup>(٣)</sup>.

عندما يكون الطفل وحيد أسرته؛

في الواقع أن الطفل الوحيد ليس هو المشكلة، وتكمن المشكلة في سلوك الأبوين نحو الطفل الوحيد. فالأبوان يحيطان الطفل الوحيد بعناية تزيد كثيراً عن العناية التي

يحتاجها طفل في عمره، فهما يستجيبان لكل طلباته ويحققان كل رغباته مما يجعله - في الغالب - أنانياً يعرف حقوقه أكثر من معرفته لواجباته، وغير قادر على التعامل السليم مع الآخرين تعاملًا قائمًا على العلاقات المتبادلة والأخذ والعطاء. ونتيجة لجو الدلال المفرط الذي يحاط به الطفل الأول ينشأ خجولاً ضعيف الثقة بنفسه وأميل إلى الاتكال على الآخرين وغير قادر على الاستقلال عن والديه<sup>(4)</sup>.

ويصل الأمر ببعض الآباء الذين لهم طفل وحيد أنهم يصبحون غير قادرين على الابتعاد عنه أو مفارقتة، مما يشكل عقبة أمام نجاحه في الحياة وأمام اكتمال نضجه النفسي والاجتماعي، وقد يستمر هذا الوضع مدى الحياة، حتى إذا أصبح الابن في سن الزواج مثلاً نجد أن الأبوين يتدخلان نيابة عنه في اختيار الزوجة، وقد يطلبان منه أن يستمر في العيش معهما... إلى غير ذلك من التصرفات التي تبرز عدم استقلالية الابن والتصاقه غير الطبيعي بوالديه. وقد نسمع، على سبيل المثال، أن طابعا لم يتابع دراسته العلمية في الخارج لأن أمه لا تستطيع أن تفارقه أو لأنه لا يستطيع أن يفارق أمه أو والده. وعندما يتزوج مثل هذا الابن الوحيد فإنه قد ينتظر من زوجته أن تعامله كأمه، وبذلك قد يفضل في علاقته الزوجية التي تختلف في طبيعتها عن علاقته بأمه وفي بعض الأحيان قد يلجأ هذا الابن إلى الزواج بسيدة تكبره سناً تقوم بدور البديل عن الأم. وهذا ما يحدث لبعض طلابنا الذين يتابعون دراستهم في الخارج ويتزوجون سيدات في عمر أهمهم تحيظهم بعناية قريبة من عناية أمهم بهم وتلعب دور البديل عن الأم.

ولا بد من الإشارة إلى أن هناك حالات لا يكون الطفل وحيداً إلا أنه من الناحية الواقعية أقرب إلى الطفل الوحيد، مثل الطفل الأخير أو الأنتى الوحيدة التي تعيش مع عدد من أخواتها الذكور، أو الطفل الذكر الوحيد الذي يعيش مع عدد من أخواته. وهذه الحالات غالباً ما ينطبق عليها ما ينطبق على الطفل الوحيد، ففي مثل هذه الحالات يعامل الطفل بكيفية متميزة عن معاملة باقي إخوته مما يجعله معرضاً لاحتمال اتصاف سلوكه بما يتصف به سلوك الطفل الوحيد.

#### كيف تعامل الطفل الوحيد:

في البداية أود أن أشير إلى أن عدداً من الآباء يعرفون - من الناحية النظرية - أن المبالغة في العناية بالطفل تضر بشخصيته وسلوكه ورغم ذلك يستمرون في هذه المبالغة

4- راجع: DE AJURIAGUERRA(J), Manuel de psychiatrie de l'enfant Ed. Masson. Paris 26. Ed. P.878-879.

بالعناية بالطفل، وربما كان السبب في ذلك أن عملية تنشئة الطفل أو تربيته لا تخضع كلياً لإرادة الوالدين ورغبتهم، وإنما هي عملية تتدخل فيها القيم الاجتماعية التي تسود المجتمع وتنعكس على الأسرة وتؤثر في سلوك جميع أفرادها لا سيما سلوك الأبوين. فالمطلوب إعادة النظر به هو نظرة المجتمع إلى الطفل وإلى أسلوب تعاملنا معه، ذلك أن القضية ليست قضية فردية تهم فقط الأبوين. إن الأبوين يُعدان الطفل ليصبح عضواً في المجتمع، متكيفاً مع ما يسود المجتمع من قيم ومعايير وعادات، ومن هنا فإن أسلوب تعاملهما مع الطفل غالباً ما يحدده المجتمع، وهما يقومان بتطبيق هذا الأسلوب المتعارف عليه اجتماعياً.

نستخلص من كلامنا هذا أن عملية تربية الطفل ليست عملية تخضع كما يبدو لأول وهلة - لإدارة الأبوين وتخطيطهما، فالطفل يتأثر بما يلاحظه من سلوك أبويه وسلوك باقي أفراد أسرته أكثر مما يتأثر بالأوامر والنواهي والإرشادات والنصائح... التي يوجهها الأبوان له والتي يوجهها له المعلم في المدرسة. وهذه الحقيقة غالباً ما تغيب عن ذهن الآباء فيتصرفون في حياتهم العادية بكيفية تختلف في جوهرها عن مضمون النصائح والأوامر التي يطلبون من الطفل الالتزام بها.

إن تعامل الآباء مع الطفل لا يجب أن يكون تعاملًا شكلياً أو فوقياً يقتصر على الأوامر والنواهي والنصائح (يحب أن تفعل كذا أو لا تفعل كذا..)، وإنما يجب أن يكون سلوك الأبوين - الذي يراه الطفل ويلاحظه ويتأثر به - منسجماً مع التعليمات التي يصدرانها للطفل. وما يجب أن نعيد النظر به هو موقف الآباء، والمجتمع بصفة عامة، من الطفل ككل. فالطفل ليس ملكية فردية أو قطعة أثاث يتصرف بها والداه كيفما أرادوا، فللطفل رغباته واحتياجاته ومستواه العقلي... إلى غير ذلك من الخصوصيات التي يجب أن يأخذها الأبوان بعين الاعتبار في تعاملهما مع الأطفال.

وإذا وصل الآباء إلى هذه الدرجة من الوعي فإنهم سيعاملون الطفل التوحيد، ذكراً كان أو أنثى، تعاملًا عقلانياً يتيح له أن يعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات. كما يتيح له أن ينمو ذهنياً وجسدياً واجتماعياً بكيفية طبيعية بعيدة عن الضغط والإكراه والامتنال الأعمى والخوف ليصبح قادراً على الاعتماد على نفسه وتحمل المسؤولية. وينطبق هذا الأسلوب في التعامل ليس على الطفل التوحيد وإنما على جميع الأطفال كيفما كان جنسهم أو ترتيبهم داخل الأسرة.